قراءة نقدية في ديوان ابن قُزمان القرطبي
"إصابة الأغراض في ذكر الأعراض"
تحقيق فيديريكو كوريينتي

الأستاذ ادريس العشاب
دكتوراه في اللسانيات الاجتماعية، مختبر اللغة والمجتمع
كلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن طفيل، القنيطرة
المغرب

مقدمة

شكل ابن قزمان القرطبي ظاهرة متفردة في الأدب العربي عموما وفي الأدب الأندلسي على وجه الخصوص، وقد تأتى له ذلك بعدما أعرض عن نظم الشعر باللغة العربية الفصحى وتخصص في النظم بعامية أهل الأندلس والذي أصطلح على تسميته في البداية بـ "الهَزَلي"[1] ثم اشتهر فيما بعد بتسمية "الزجل" وبرع فيه براعة منقطعة النظير على مستوى الشكل والمضمون، إلى الحد الذي جعل معاصريه يلقبونه بإمام الزجالين لأنه" جرد الشعر من الإعراب كما يجرد السيف من الجراب"[2].

وتهدف هذه المقالة إلى استكناه محمولات ومدلولات ديوان "إصابة الأغراض في ذكر الأعراض" لابن قزمان، والوقوف على سيرة الرجل والخصائص الفنية لأزجاله.

وتفترض الدراسة أن ابن قزمان رغم تصريحه في مقدمة الديوان أنه موقوف على غرض المديح فقط، سيتضمن أغراضا أخرى تأتي استجابة للظروف التي ينظم فيها قصائده. فماهي هذه الأغراض؟ ولماذا كان ملزما بتوظيفها إلى جانب الغرض الرئيس المتمثل في المدح؟

تلكم أهم الأسئلة التي ستجيب عليها هذه الورقة محاولة منها في الانفتاح على التراث الأندلسي الذي ساهم في إغناء الثقافة العربية لقرون طويلة، وربما كان له تأثيره البالغ على بزوغ الشعر الملحون بالمغرب.

الكلمات المفتاحية:

الزجل . ابن قزمان . الأغراض . المديح . الفخر . الغزل . الخمرة ...

1. سيرة ابن قزمان

هو أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن عيسى بن قزمان الأصغر[3]، ينتسب إلى بيت بني قزمان، وكان من بيوت قرطبة العريقة، ولد بقرطبة بعد سنة 460هـ/1068م، وتوفي سنة 555هـ/1160م[4].

يعد ابن قزمان إمام الزجالين على الإطلاق، وإن كان قد سبقه آخرون قبله إلى نظم الزجل، من قبيل، مقدم بن معافى القبري، والرمادي شاعر المنصور، وعبادة بن ماء السماء، وأبو بكر بن اللبانة شاعر المعتمد، والقزاز والأعمى التطيلي، ومحمد بن أرفع رأسه، والحضرمي وابن زهر[5]، غير أنهم لم يحققوا ما وصل إليه من نظم وإبداع لا يضاهى، وقد ورد في مقدمة ابن خلدون أن "أول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر ابن قُزمان، وإن كانت قيلت قبله بالأندلس، لكن لم تظهر حُلاها ولا انسكبت معانيها واشتهرت رشاقتها إلا في زمانه. وكان لعهد الملثمين، وهو إمام الزجالين على الإطلاق"[6]

وقد روى لابن قزمان مجموعة من المؤلفين والكتاب نورد منهم، ابن الأبار في كتابه تحفة القادم، وابن سعيد في المغرب في حلى المغرب، وصفي الدين الحلي صاحب العاطل الحالي والمرخص الغالي. كما خلّف ابن قزمان مخطوطة من ديوانه كتبها نسّاخ بمدينة صفد في فلسطين (683هـ /1234م)، وهي التي نشرها المستشرق دافيد دي جوتونبرج في برلين (1896م) مصورة في لوحات، تم توالى تحقيق المخطوطة على يد المستشرق نيكل (مستشرق تشيكي 1933م) الذي قام بنشرها مكتوبة بحروف لاتينية وأرفق معها دراسة عن ابن قزمان، ثم غرسيا غومس (1972م)، غير أن كلتا النشرتين كانت بحروف لاتينية مما جعل الديوان بعيدا عن تناول الدارسين العرب. ثم تولى الباحث فيديريكو كورينتي كوردوبا القيام بطبعة جديدة محققة لهذا الأثر الأدبي.

ويرى ابن سعيد أن ابن قزمان "كان في أول شأنه مشتغلا بالنظم المعرب، فرأى نفسه تقصر عن أفراد عصره، كابن خفاجة وغيره، فعمد إلى طريقة لا يمازحه فيها أحد منهم، فصار إمام أهل الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس" [7]، والمقصود بكلام عامة الأندلس تلك اللغة الحضرية المتداولة بين غالبية السكان آنذاك، والتي يتواصلون بها في مختلف معاملاتهم اليومية.

ورغم كون ابن قزمان ينتمي إلى أسرة اشتهرت بالعلم والوزارة – كان عمه أبو بكر ابن قزمان الأكبر كاتبا لدى المتوكل صاحب بطليوس[8]–، فإنه عمد إلى نظم أزجاله بهذه اللغة الحضرية؛ التي تسمى اليوم بالعامية أو اللهجية العربية، وقد كانت له الجرأة الكافية للتصريح باختياره الواعي للغة العامية وجعلها أداة طيعة و وظفها أحسن توظيف في نظم قصائده الزجلية وهو القائل عن شعره أنه مجرَّد من الإعراب كما يجرد السيف من الجراب أو الغمد، وقد ورد على لسانه إنه وجد في الأندلس ضربان من الزجل جنبا إلى جنب: "أولهما شعبي خالص جاف غليظ، يستعمل الزجالون فيه اللغة الدارجة وعجمية أهل الأندلس، وكان يوافق أذواق العوام، وثانيهما مصقول مهذب مصطنع متكلف يستعمل الناس فيه حركات الإعراب التي لا تجري بها ألسنتهم في دارج الحديث"[9]. ولم يبق من النوع الأول شيء لأن مصنفي كتب الأدب ازدروه وضربوا عنه صفحا، وأما النوع الثاني فيوجد منه أطراف، ولكنها تخلو من الجاذبية وسهولة الطبع التي يمتاز بها النوع الأول.

ومادام أن ابن قزمان كان ينتمي إلى أسرة عالمة فإنه درس أزجال من سبقوه – على حد قول ريبيرا – ثم شقَّ لنفسه طريقا جمع بين الفريقين اللذين ذكرناهما، وعرف كيف يحتفظ بأحسن خصائصهما، فرأى أنه من فساد الذوق والتكلف أن تستعمل حركات الإعراب في شعر يراد أن تتغنى به جماعة في جمهور من الناس، ومن تم فلا مناص من استعمال لغة الكلام الدارج حتى يقترب من أفهام الناس كافة، وهو يقصد "بلغة الكلام" اللهجة العامية الدارجة التي تشوبها كلمات وعبارات من عجمية أهل الأندلس.

2. خصائص الزجل عند ابن قزمان

أثارت أزجال ابن قزمان نقاشات مستفيضة على مستوى النقد الأدبي بين المستشرقين والعرب على حد سواء، وكان من بين العناصر التي نالت حظوتها من النقاش قضية البنية العروضية التي أسس عليها شاعرنا أزجاله، فالمستشرقون يرون أنها تعود إلى أصول أوربية ولهم في ذلك دليل، وأما العرب فيرون أنها تنتمي إلى العروض الخليلي ولهم ما يثبت.

يعتبر غرسية غومس حامل لواء النظرية القائلة أن أوزان الأزجال تنضبط على الأساس المقطعي مثل الشعر الأوربي، خاصة بعد اكتشاف الخرجات العجمية سنة 1948م، لكن كورينتي تصدى لهذا الرأي طارحا رأيا آخر مفاده "أن أعاريض الموشحات تخضع لموازين العروض التقليدي، غير أن الأندلسيين أدخلوا على هذه الأعاريض بعض التحوير والتعديل بحيث تتكيف في البيئة الأندلسية وتلائم ذوق اهل البلد وذلك بأن تعتمد النبر على بعض المقاطع"[10]. ويرى كورينتي أن نظرية النظام العروضي تقوم على ثلاثة أسس:

أ- "أن العربية الأندلسية استبدلت النبر بالتقسيم الكمي المعروف إلى أسباب وأوتاد في إطارها الصوتي.
ب- أن هذا النبر لم يقتصر على لغة الخطاب الدارجة، بل امتد أيضا إلى العربية الفصحى التي كان يتخاطب بها المثقفون
ت- انتقل هذا النبر أيضا إلى الإيقاع المعتمد في إنشاد الشعر، فالمقاطع الطويلة كانت منبورة على حين تبقى المقاطع القصيرة بغير نبر"[11]

وعلى المستوى اللغوي اصطنع ابن قزمان لغة زجلية معتمدة أساسا على عامية قرطبة مع تحليتها المتواترة ببعض محسنات اللغة المشتركة بدون إفراط في ذلك، لاسيما منها المقتبسات المعجمية.

ويرى ابن قزمان أن الزجال ينبغي عليه أن يختار من الموضوعات أحفلها بالفكاهة وأخفها وينبغي أن يكون ما يختاره جذابا رشيقا فياضا بالحيوية؛ مما يثير اهتمام الجمهور، وينبغي ألا تكون الموضوعات معقدة أو فيها من البلاغة المتكلف. كما ينبغي أن تكوم الموضوعات "حارة محرقة، وحادة منضجة من ألفاظ العامة ولغات الدّاصة"[12].

أما قالب الأغاني وتركيبها فتستعمل له كل بحور الشعر الفصيح القائم على أسس العروض الخليلي، ولا بد أن تصاغ القطعة على نحو سلس غير متكلف حتى تجيء سهلة طبيعية صادرة دون تعمل ولا جهد.

كانت تلكم بعضا من الخصائص التي تميز أزجال ابن قزمان شاعر قرطبة وإمام زجاليها على الإطلاق.

3. قراءة في ديوان ابن قزمان

"ديوان ابن قزمان القرطبي (إصابة الأغراض في ذكر الأعراض)" هو عنوان للمنجز الزجلي لابن قزمان، حققه فيديريكو كورنيتي وهو مستشرق إسباني أولى أهمية بالغة لهذا العمل الفني الذي يقدم صورة عن أحوال بلاد الأندلس عموما وقرطبة على وجه خاص.

يتكون الديوان من خمسمائة وسبع وثلاثين صفحة، توزعت مواده على صفحاته وفق الترتيب التالي:

1.3. التصدير

استُهِلَّ الديوان بتصدير تحدث فيه المحقق عن عمل ابن قزمان الذي جعله يتصدر مكانة مرموقة في الأدب الأندلسي، ولا أدل على ذلك من المصنفات التي اهتمت بدراسة حياته وآثاره، من قبل الباحثين المستشرقين والعرب على حد سواء. وقد صدر

ديوانه مطبوعا ثلاث مرات فيما بين تحقيق نيكل الأول وتحقيق فيديريكو كورنيتي، إضافة إلى عدد كبير من الأقلام التي أنتجت مقالات وأبحاث خصبة وهادفة اهتم أصحابها بأعمال ابن قزمان من قبيل عبد العزيز الأهواني ومحمد بن شريفة، وجرير أبي حيدر، ومجدي محمد شمس الدين، وغارسيا غوميث، وكولان، وليفي بروفنسال.

ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن شخصية ابن قزمان كإنسان وفنان في البيئة الأندلسية، وأهم محطات حياته وأخباره وأحواله، وعرج على إبراز دور ابن قزمان في الأدب الأندلسي خاصة وفي الأدب العربي عامة، وكيفية صياغة أزجاله وطريقة تقطيعه للشعر الزجلي، وخصائص عروض الزجل المحور، وختِم التصدير بملاحظتين خاصتين بطريقة كورينتي في ضبط رسم الأزجال والمنهج المعتمد في تحقيق الألفاظ.

2.3 مقدمة الديوان

هي من إنتاج إمام الزجالين ابن قزمان يتحدث فيها عن تفتق موهبته في قرض الزجل وصقله لها مما جعله يتفوق على جميع زجالي عصره، وانتقاده لأشعار الزجالين لما فيها من ركاكة وتزنيم، والإتيان بالمعاني المبتذلة، على عكس ما جاء به من ألفاظ سهلة وعذبة وصياغة معان مستحسنة، استطابها الممدوحون وكافأوه عليها ووفوا له العطاء، وقد خصص معظم أزجاله المدحية للوزير الأمين أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الوشكي[13]الذي يذكره بالاسم في قصائده كما في البيت[14]:

لشَّنْهُمْ الصِّبيان مِلاح مَخادلْ

وإبراهيم الوشكي مليحْ وعاقِلْ

ويعبِّر عن إعجابه به في جميع أحواله سواء كان ظالما أم مظلوما، يقول ابن قزمان[15]:

تعْجَبْني يا وَشْكِي مُنصف وظالم

وابْصَرني قُدَّامك وابْصَرْني حاكم

ويصفه في بيت زجلي آخر أنه جوهر الجلالة وأنه فخر بلاد الأندلس، وأن الزجال يشعر بالأمن والأمان وهو بقربه[16]:

يا جوهر الجلالة يا فخر الأندلوس

طول ما نكون بجاهك لَسْ نَشْتَكِي بِبُوسْ

ويشير إليه بمنصب الوزير في قصيدة زجلية ويعتبره في مقام الأخ وأن غيره من الناس مجرد همج، يقول[17]:

آتْ هُوْ يا أخي وزير وغيرك همَجْ

من يعاديك لقد يكون مندمَجْ

لولا خوفَكْ واشْ كِيرَّى من عوجْ

لَسْ يجرَّى الغراب يطير في الخرمْ.

4. أغراض الزجل عند ابن قزمان

تضمن ديوان ابن قزمان مائة وثلاث وتسعين قصيدة زجلية، وقد بين في مقدمة ديوانه أنه سيجعله مدحا موقوفا على شخص واحد هو الوزير الأمين أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الوشكي[18]، فالغرض الرئيس المهيمن على الديوان هو المديح التكسبي الذي يهدف من خلاله الزجال – على غرار باقي الشعراء العرب في مختلف عصور الأدب العربي لاسيما العصر العباسي– إلى استجداء الممدوح وسؤال حاجته.

1.4. المدح

فابن قزمان من الشعراء الذين لا يعنيهم من قرض الشعر إلا ما سيعود عليه بالعطايا والجوائز الثمينة، فهو يقدر زجله حق قدره، ومن الأشياء التي انفرد بها ابن قزمان وهو يخاطب الممدوح أنه يلتمس في كل مدحة طلب معين حسب الحاجة، فعلى سبيل المثال لا الحصر يقول[19]:

جيت إليك قاصد أن تنظر لحالي

وعُلاكْ شافع في غير مشَفَّعْ

لو جعلك الله تراني نَبَرْدَقْ

والريح الشرقي قد بنى يَسَرْدَقْ

ورَجَعْ صُلْبي بالبرد مُطَرَّقْ

وبْكُمّي يدّ لَبسي مُضَلَّعْ

والظاهر أن الزجال جاء قاصدا الوزير الوشكي لمساعدته في الحصول على ملابس تقيه من القرّ في فصل شتاءٍ باردٍ، وكأننا أمام إنسان فقير لا يملك ما يرتدي من الثياب إلى الحد الذي يصف نفسه أنه (عريان) وفي حاجة إلى أسمال يحتمي بها ويحفظ بها كرامته وعزة نفسه – إن كانت له كرامة وعزة نفس – إذ يقول في إحدى قصائده[20]:

فإذا جيتْ في أمر أنا نَخشاهْ

إلى دَارَكْ ألاَّ نهرَبْ باهْ

وانا عُريانْ فاكسيني ثوب من جاهْ

الكرم عزهْ والكرامة طعامْ

ويلتمس في موضع آخر من الممدوح التكرم عليه بأضحية العيد مقابل مدحه بقصيدة زجلية[21]:

يا من إذا رَيْتُ جاني فرْحي

لابدَّ من كبشٍ ما نَضَحِّي

فابن قزمان يعتبر أن له حق معلوم في مال الممدوح، لمساعدته على تجاوز حرمانه وفقره، بعدما أبرم عقد الصلح مع نوائب الدهر منذ زمان، يقول الزجال[22]:

بياضي نَفْرَحْ نَضْرَبْ يَدَيَّ

لَسْ نَخْشَى هَمّا يِجِي إِلَيَّ

ولا زمانا يُجوزْ عَلَيَّ

مع النَّوايِبْ عَقَدْتُ صُلْحِي.

تمثل الأبيات الزجلية السابقة، مثالا يوضح طغيان المديح التكسُّبي على الديوان بكامله، غير أنه تضمن الأغراض التقليدية المتداولة في الشعر العربي من قبيل الغزل والفخر والخمر وغيرها من الأغراض.

2.4. غرض الغزل

الغزل من الأغراض الأكثر تداولا في الشعر العربي منذ نشأته، ولم تكد تخلو قصيدة من التعبير عن المشاعر الفياضة تجاه المحبوب سواء تعلق بالأمر بالقرب أم البعاد والهجران، فالتعلق والشوق حاضران في ذهن ومخيلة الشاعر العربي الذي آثر أحيانا استهلال قصائده بالغزل. وهكذا واصل الشعراء النهج نفسه في بناء قصائدهم مقتفين أثر سابقيهم، وما يقال عن الشعر الفصيح ينطبق تماما عن الشعر اللهجي أو العامي، إذ جاء ديوان ابن قزمان حافلا بالمقدمات الغزلية التي عبر فيها عن مكنونات نفسه التواقة إلى الآخر الذي يشكل له صورة مختلفة عنه وفيها من الحسن والجمال ما تلذ إليه النفس وتستمتع به العين.

وفي سياق الحديث عن الغزل في قصائد ابن قزمان الزجلية، لابد من الإشارة إلى أن هذا الشاعر تطرق إلى الموضوع بطريقة جريئة وإن أتت في سياق العرض أو الإلقاء الممزوج بالدعابة والفكاهة، مادام هذا النوع من الزجل ينظم ويروى على الملأ في لحظات اللهو والمجون، كما أشار إلى ذلك ابن قزمان نفسه أثناء حديثه عن مناسبة نظم الزجل.

لقد شكل التغزل بالأنثى على غرار الشعراء العرب التيمة الأكثر تداولا في الديوان، اتخذه الزجال وسيلة لعرض مفاتن الأنثى ومكامن الجمال فيها، كما جاء في المقطع[23]:

فما صُغَيَّر ولعابا حُلُو

كَتِضَمَّنْ الجنّة لمن قَبَّلُ

أن نالَ حبيب أو هجر ماع فَش

ولش يقول في قطوع قلبي، لَشْ

يا قوم أنا دلَّلْتُ وحتى آشْ

فَمُ وعَيْنيهْ الملاح دَلَّلُ.

ومن بين المتغزل بهن في أزجال ابن قزمان "زُهْرة وسُمَيرة" ونقدم مثالا من هذه الأزجال، ففي زهرة يقول[24]:

أنا نِفَرّغ وزُهْرَ تملا لي،

بياضي معشوقتي وعلاّلي.

جلَسْتُ بين الشراب فمحبوبي،

فهذا حِبّي وهذا مشروبي،

وذا الزمان قد عمل لي مرغوبي

نَرَى فِي زُهْرَ المَليحَ آمالي.

وفي سُمَيْرَة، يقول:

سُمَيْرَ هِي، مليحة الأطرافْ،

حُلَيَّ، لَسْ يصفها واصفْ،

شَرْطَ الملوك وبابة الأشراف،

لم قط يكون جمالها مسبوقْ،

تعمل ضفيرْ حُسْنَها مشهور،

من يتعجب إذا رآها معذورْ،

فالسحر هي وشعرها مضفور

والسحر هي وشعرها مطلوق

يا قلبي، واش قادر قلبي يهواك

فَى الموضَع الرّفيع ثَمَّ سُكناك

وكلما دفعتك إلى هناك

نْجَدْك في جوانحي مَلْصوق.

ولعل الطابع المهيمن على أزجال ابن قزمان هو الغزل المصاحب للخمرة حينا وللمدح أحيانا كثيرة، فأزجاله "تميل إلى المجون واللهو والتغزل بالمذكر والتعبير عن حب الغلمان"[25]، ومن أمثلة هذا النوع في الديوان[26]:

خِدلاني كالذي تدريه،

لس نقطع دهري إلا بيهْ

وإن كان فَى الورى من فيهْ

أحد الخَصلتين، لَوّاط أو زاني

فأنا ذا الخصلتين نجمعْ.

ويصرح في مقدمة إحدى قصائده عشقه لصبي معروف لدى عامة الناس ويقدم صورة حسية عن عبق المسك الذي يفوح منه وحسنه ودلاله، يقول الشاعر[27]:

صبي نعشقُ من السوق، إن عَرَضْ لك ستدريهْ،

كِنْ نُقول لك كِفْ اسمه، لَس نجَرَّى نِسَمّيهْ.

أت يا من تقتل الناس، على يد ما يُكَلَّمْ،

أَشُّ ذا المسك، يا أخي؟ جي يراك المعلَّمْ،

والله انّك مُتَيَّه! وارضَ مكّار[28] وسلَّمْ

.....

يا مدلل عليّ، يا مليح التجني،

أَشْ بِطيبْ لي حديثك، وحديثك قتلني،

عمدا! يا قلبي، اثبُتْ، لا تزول قط مني!

ولتأكيد اهتمامه بالتغزل بالمذكر، نورد مثالا آخر من أزجاله يقول فيه[29]:

نعشق، ولس في طبعي إلا الكتمان،

صبيا مليح أملح من في الصبيان،

ثلاث من نعوتُ رَيْت في الغزلان:

أسمر معيَّن أكحل، يا ذا الأسمر،

واشُّه كما فطن بي، والله، أَسْبَرْ!

يشبه ابن قزمان الصبي المتغزل به بالغزلان (مفردها غزال) في اللون والشكل والعين، وقد جرت عادة الشعراء العرب بتشبيه النساء بالغزلان والمها والنوق لارتباطهم بالبيئة الصحراوية التي شكلت فضاءهم الأرحب، وقد سار الزجال على منوالهم وإن كان يعيش في بيئة مخالفة تماما لسابقيه، فهو من أبناء قرطبة التي اعتبرت آنذاك حاضرة بلاد الأندلس.

كما أن التغزل بالمذكر ليس جديدا في الشعر العربي بل سبق لأبي نواس أن نظم في هذا الموضوع بعضا من قصائده.

إن غرض الغزل غالبا ما يكون مصحوبا بغرض آخر، به يكتمل بناء النص الشعري شكلا ومضمونا، يتعلق الأمر بغرض الخمرة، إذ يشكلان معا ركنين من أركان مجالس الأنس والمسامرة.

3.4 غرض الخمرة

لا تكاد قصيدة من قصائد الديوان تخلو من الحديث عن الخمر ومجالس الأنس والمسامرة في الحياة اليومية لابن قزمان، لذا يمكن اعتباره من الشعراء الأندلسيين الذين بالغوا في وصف الخمرة سيرا على منوال الشاعر العباسي أبو نواس في الشعر العربي الفصيح، وقد "احتل جزءا كبيرا من أغراضه الشعرية، فتحدث عن لونها، وطعمها، قدمها ومجلسها وأثرها في نفوس شاربيها"[30]. وهكذا نجد ابن قزمان يعدد أسماء الخمرة في زمنه كما يلي[31]:

شَراب أصفر حبيب مولائِي
سرورِي، فرحي، طَبيبِ من دائِي
عقارِي، خَمري، شُمولي، صهبائي
مدامتي، خَنْدرِيس جِريالي

أورد ابن قزمان أسماء فصيحة للخمرة كانت متداولة في المعجم العربي القديم هي العقار والخمرة والشمول والصهباء والمدام والخندريس، ولا يجد حرجا في الاعتراف بتناوله للخمر رغم كبر سنه وبروز شيب لحيته، ويعتبر من يدعوه إلى التوبة والابتعاد عن النبيذ عدو ويقابل نصيحته بالسب والشتم، وإن كان فقيها جارا له في السكن، يقول ابن قزمان[32]:

يا قد رجع الشراب عاشق أصفر رقيقْ:

خَلُّوني معْ كاسي، يا إخوانْ، حتى نِفيقْ،

من قال لي: اشرب وأَتْخَنْكَرْ[33] فَهُو الصديقْ،

وكلِّ من قال ليَّ اتْقَوَّمْ نعطيه شَتَمْ

بيني وبين الفقي جاري في الكاس حروبْ:

في أيام الخَسِّ والبسباس تَخْلاَ الذُّنوبْ

كما يرى لحية بيضا يُقُول لي: "تُوبْ"،

وأنا كما دابي نتعلّمْ طُرُقْ الزَّمَنْ.

والمتتبع لأزجال ابن قزمان سيكتشف أن الرجل كان شديد الإدمان إلى الحد الذي يعتبر معه أن وجوده مرتبط بالخمرة[34]:

أسقني بالكاسات يا أخي دون عَلاَّلي

طول ما كاس في الدنيا لا تَسَال عن حالي

ما يريد الخُلاّعْ مثل ساق اللاَّ لي.

وقد صرّح أنه لا يصاحب إلا المدمنين على معاقرة الخمرة، فهو موجود حيثما وجد السكارى لا غير[35]:

وكل جماعة لا تشرُبْ،

لَسْ نَقْرُبْ أنا ذيك الجماعهْ

ولا شك أنه كان يجالس كبار القوم مِمَّن مدحهم بقصائده التي ترد فيها أماكن اللقاءات وما يصاحب ذلك من جوار وغلمان وخمور سواء في الحدائق الغناء أم في القصور الفارهة، يقول ابن قزمان[36]:

أيْما كان وزير بقرب نقربْ

وإن رَيْتْ فقيه نُقُوم ونهرب.

4.4. الفخر

شكل الفخر تيمة مهيمنة، فلم تكد تخلو قصيدة من اعتداد ابن قزمان بنفسه، لاسيما في موضوع نظم الزجل وتمكنه منه وتفوقه على غيره، فإذا كان الزمان قد جار عليه وفعل فيه فعلته لأسباب مختلفة، وضاقت عليه الدنيا بما رحبت من أموال وممتلكات وخيرات، ولم يجد حيلة للاغتناء وتجنب سؤال غيره من الأمراء والوزراء، وإن كان من أسرة عاشت الوزارة والرئاسة، فإن قريحته في قرض الزجل لا يضاهيه فيها لا وزراء ولا شعراء، الأمر الذي جعله يتسلطن ويتربع عرش الزجل وهذا شكل له مصدر فخر، يتباهى به متى أتيحت له المناسبة.

إن تمكن ابن قزمان من صناعة الزجل، ساعدته على اتخاذه بضاعة يتاجر بها بمقابل مادي صرف، فلا تخلو قصيدة من الإشارة إلى أنه يمدح غيره مقابل تمكينه من طلب معين، وما أن يكاد ينهي قصيدته حتى يرجع إلى نفسه التواقة إلى العزة والكرامة فيستدرك ويشرع في تزكيتها والفخر بقدراتها العالية في نظم الزجل، يقول ابن قزمان[37]:

ذا الزجل قط والسلام

فَرْد أنا فيه وإمام

إن ذي رقّة كلام

نلقَ في الطبع نحُولْ

ويقول[38]:

فَ الزجَل قد صرت سُلطان ورفعتُ فيه لوائي

كُلَّ احَدْ يَثني عَليَّ وبِحَقّ هُو ثنائي:

أزجالي مِلاحْ قَويَّه وَيِجِي مَتاعْ سِوائِي

عمل أيُّوب[39]، والقُويفات لا مِلاح ولا قَويَّه

خاتمة

من خلال ما سبق، نستنتج أن ابن قزمان وإن أراد من هذا المنجز الأدبي أن يكون مديحا خالصا، فإنه وظف أغراضا شعرية أخرى تخدم الغرض الرئيس من جهة، ويفصح (من خلالها) عن بعض من جوانب حياته الشخصية من جهة ثانية، فإذا كان الشاعر في حاجة إلى مدح ممدوحيه لِعَوَزه وفقره، فإنه بالمقابل يمثل نموذجا متفردا في نظم الغزل وتفتق الموهبة في عصره وهو إمام الزجالين، ولهذا حُقَّ له أن يفخر بنفسه قبل الشروع في مدح غيره من أمراء ووزراء وقضاة وفقهاء، ورغم فقره فإن مجالسته لهؤلاء جعله يستمتع ـ إلى رفقتهم ـ بحياة اللهو والمجون ومعاشرة الجواري والغلمان، وقد دوَّن هذه القضايا في ديوانه.

ويتضح من خلال ما عرضناه من معطيات حول الديوان، أنه يشكل مادة ثقافية دسمة من شأنها أن تساعدنا على تقديم قراءة جديدة لتلك النصوص بسبر أغوارها والوقوف على أهم أنساقها الثقافية من أجل إعادة بناء وتشكيل صورة عن الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ببلاد الأندلس ولنقل بقرطبة في الفترة التي عاشها ابن قزمان ما بين 460هـ و555هـ.

الهوامش:

[1] . أبو بكر محمد بن قزمان، ديوان ابن قزمان إصابة الأغراض في ذكر الأعراض، تحقيق فيديريكو كورينتي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ص 214. (انظر الإحالة).

[2] . نفسه، ص 27.

[3] – ابن سعيد والحجاري، المغرب في حلى المغرب، الجزء الأول، تحقيق شوقي ضيف، الطبعة الثانية، دار المعارف 1964، ص 100.

[4] –آنخل جنثاليث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية 1955، الطبعة الأولى، ص 158.

[5] – المقري، أزهار الرياض، الجزء الثاني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة. د.ط، د.ت، ص252.

[6] . ابن خلدون، عبد الرحمان، المقدمة، تحقيق عبد السلام الشدادي الجزء الثالث، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2005، ص 328.

[7] – ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، مرجع سابق، ص100.

8 – نفسه، ص100.

[9] – أبو بكر محمد بن قزمان، ديوان "إصابة الأغراض في ذكر الأعراض"، مرجع سابق، ص27.

[10] . محمود علي مكي، مقدمة ديوان ابن قزمان.

[11] – أبو بكر محمد بن قزمان، ديوان "إصابة الأغراض في ذكر الأعراض" المقدمة (غير مرقمة)

[12] – آنخل جنثاليث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، مرجع سابق ص159.

[13] - أبو بكر محمد بن قزمان، ديوان "إصابة الأغراض في ذكر الأعراض" مرجع سابق، ص 32.

[14] - نفسه، ص 44.

[15] – نفسه، ص 32.

[16] - نفسه، ص 84.

[17] - أبو بكر محمد بن قزمان، ديوان "إصابة الأغراض في ذكر الأعراض" ، ص60.

[18] - نفسه، ص 21.

[19] . نفسه، ص 5150.

[20] - أبو بكر محمد بن قزمان، ديوان "إصابة الأغراض في ذكر الأعراض، مرجع سابق، ص 64.

[21] – نفسه، ص 52.

[22] – نفسه، ص 44.

[23] . أبو بكر محمد بن قزمان، ديوان "إصابة الأغراض في ذكر الأعراض"، مرجع سابق، ص 138.

[24] . نفسه، ص 120.

[25] . محمد عباسة، الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور، مستغانم (الجزائر)، دار أم الكتاب للنشر والتوزيع، 2012، ص 138.

[26] . أبو بكر محمد بن قزمان، ديوان "إصابة الأغراض في ذكر الأعراض"، مرجع سابق، ص 122.

[27] . نفسه، ص 36. 37.

[28] . أعجمية الأصل، كثيرة الاستعمال لديهم، معناها "على الأقل" أو "على اية حال" انظر الديوان، ص 36.

[29] . أبو بكر محمد بن قزمان، ديوان "إصابة الأغراض في ذكر الأعراض"، ص 124

[30] . العشماوي، محمد زكي، خمريات أبي نواس، دار المعرفة، الطبعة الأولى، القاهرة، 1998، ص 27.

[31] . أبو بكر محمد بن قزمان، "إصابة الأغراض في ذكر الأعراض"، مرجع سابق، ص 216.

[32] . نفسه، مرجع سابق، ص 231.

[33] . الخنكرة أو التخنكر عندهم هو التغني، دخيلة عن خُنَيْكَار الفارسية، معناها المطرب، وقد انتبه إلى هذا الاشتقاق د. الأعرجي، 1998، ص 29، (انظر حاشية الديوان، ص 231)

[34] . أبو بكر محمد بن قزمان، ديوان ابن قزمان "إصابة الأغراض في ذكر الأعراض، ص 443.

[35] . نفسه، ص 108.

[36] . أبو بكر محمد بن قزمان، ديوان ابن قزمان "إصابة الأغراض في ذكر الأعراض، ص 108.

[37] . نفسه، ص 172.

[38] . أبو بكر محمد بن قزمان، ديوان ابن قزمان "إصابة الأغراض في ذكر الأعراض، ص 113.

[39] . يريد بعمل أيوب إنتاج الصابر المجهد نفسه في إيجاد القوافي لأبياته، على خلاف المطبوع المجبول على قول الشعر ارتجالا، انظر حاشية الديوان، ص 113.